

رسائل أعضاء

الإرسالية التبشيرية الأمريكية في الخليج

التقرير الخامس: "رحلة إلى الأحساء سنة ١٨٩٢م" (١)

ل. س. م. ه. زويمر (S. M. Zwemer)

ترجمة: د. تركي بن فهد آل سعود

قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

الرواية التالية لـ "جولة" في الجزيرة العربية قبل أربعين سنة، أخذت بشكلها هذا من يومياتي ورسائلي القديمة.

غادرتُ البحرين في الثالث من أكتوبر ١٨٩٢م، بصحبة مسافرين آخرين، وهما تاجران عريبان، متوجّهان إلى الأحساء. امتطينا الحمير إلى قرية صغيرة نزلنا بها، في أقصى جنوب الجزيرة. وكان قاربنا ينتظرنا هناك. وبعد التأخير المعتاد بسبب تناول القهوة، وتدخين الغليون، وبضعة ترديدات لـ "إن شاء الله"، خضنا أخيراً مياهاً ضحلة مسافة ربع الميل، وبحلول الغروب رُفِعَ الشراع وانطلقنا. وقادتنا رياح

(1) S. M. Zwemer, "A Tour to Hassa in 1892", *Neglected Arabia*, no. 160 (Jan, Feb, Mar, 1932), 9-10.

متوسطة السرعة إلى بر العُقَيْر^(٢) في الصباح التالي، ووجدت طريقي إلى عساكر الجمارك، الذين أحمل إليهم خطاب توصية من تاجر بحريني؛ لكن الخطاب لم يكن ذا فائدة. ومع أن العقير ليس فيها بيوت ولا سُكَّان، إلا أن لها ميناءً، وفيها حصن مبني بالطين، وصاري أعلام صغير، ومبنى فخم للجمرك. والأخير اسم قصير لمؤسسة كبيرة في الإمبراطورية العثمانية. وكانت أمتعتي قليلة جداً حتى إنها لم تخضع للتفتيش. وبالرغم من ذلك كان عليّ أن أبين أنها لا تحتوي على جريدة التايمز اللندنية، أو أي جرائد أخرى. أما أنا فقد طلبوا جواز سفري، أو البديل وهو انتظار خمسة أيام حتى يُتَحَصَّلَ على إذن لزيارتي للعاصمة. ولحسن الحظ، كان معي ثلاثة جوازات سفر، لم يكن أيُّها معداً لهذه المناسبة، اثنان منهما لم يستطع العساكر قراءتهما، لكن بعد نقاش طويل نجحت في أن أثبت أنهما مساويان لما طلبوا. وعلى الرغم من ذلك، لم يُسمح لي بمواصلة المسير مع القافلة إلى داخل البلاد، حتى أتعهد بزيارة باشا الهفوف فور وصولي إليها. وأوكل أمر التأكد من ذلك إلى أحد الجنود.

وتُغادر العقير في كل أسبوع تقريباً قافلة، لأنها مخزن سلع لداخل البلاد. أما بلاد جبل شَمَر، فعلى الأرجح أن السلع تصلها عبر البر من البصرة وبغداد. لكن جميع بلاد جنوب

(٢) ميناء قديم، وكان الميناء الرئيس للأحساء إلى سنة ١٣٦٥هـ. انظر: الجاسر، حمد، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية: المنطقة الشرقية "البحرين قديماً" (الرياض: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م)، ٣ / ١١٧٤.

نجد تستقبل جزءاً من السلع، مثل القهوة والأرز والسكر والسلع القادمة من برمنغهام (Birmingham)، عن طريق البحرين والعقير. وقد كانت الصناديق مكدّسة في أرض مبنى الجمارك وحوله. وكان ضجيج سبعمة من الإبل تحمل عليها الأحمال يملأ المكان. وقد عقدت اتفاقاً مع صالح النجدي، لأسافر بصحبته، وكنا قد انطلقنا قبل صلاة الظهر، وكانت الأرض التي سرنا فيها لعدة ساعات صحراء قاحلة، وتظهر هنا وهناك كتبان جميلة من الرمال، وفي أحد تلك الأماكن يوجد عرق من حجر الكلس يميل لونه إلى الخضرة. وعندما حلّ المساء تقاسمنا جميعاً غطاءً على الرمال النقية وخذلنا إلى النوم في الهواء الطلق. أما من نسوا قرب الماء الجلدية، فإنهم يروون الآن عطشهم ويستتبطون ماء البئر بأيديهم من عمق أقدام ثلاثة أو أربعة. كانت الشمس حارة طوال النهار، وتختفي فيه نسمات الهواء، لكن في الليل على عكس ذلك، تحت السماء المضيئة بالنجوم، تهب رياح شمالية لاذعة البرودة.

ورأينا في ظهيرة اليوم التالي غابة النخيل المحيطة بالهفوف، التي قال عنها بلجريف (Palgrave) تعطيها "المظهر العام لعقيق أبيض وأصفر، يركض في محيط زُمُردي". ولأننا لم نصل إلى "المحيط الزمُردي" بحلول الظهر، فقد بقيت في الجَفَر^(٣)، إحدى القرى الكثيرة المحيطة [بالهفوف]. وكان لصالح هنا أصدقاء، فتناولنا عشاءً لذيذاً طازجاً من الخبز

(٣) قرية شرق قرية الفضول، وهي من أكبر قرى الهفوف. انظر: الجاسر، ١/ ٤٠٨.

والزبدة والحليب والتمر، وهذا أحد الرموز المتعددة لحسن الضيافة. وذهبنا عند الغروب إلى مُنَيَّزَلَة^(٤)، وهي القرية التالية، وتبعد نحو ثلاثة أميال عبر حدائق وجداول متدفقة بماء فاتر. وهنا، وفي مجلس مسائي لعبدالله بن سعيد بعث بعض الكتب المقدسة، وعالجت مرضى، وتحدثت عن هذا العالم، والعالم الأخرى حتى ساعة متأخرة.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، ركبنا وسرنا مرة أخرى عبر المزارع وبساتين النخيل، حتى لا نكاد نرى في غمرة ضباب الصباح. وعند الساعة السابعة صباحاً بدت أمامنا مباشرة أسوار الهفوف [ومنارات] مساجدها، عندما رفعت الشمس وشاحها، وقد كان منظرًا جميلًا.

دفعنا أجرة صالح، وتوجهت مباشرة إلى الباشا في الكوت^(٥)، أو قصر الحكم. لم أواجه صعوبة حيث وُجِّهَ الحديث إليّ بأدب جم (ويبدو أن ذلك لم يكن إلا لغرض معين)، ثم أعطيت لي غرفة في الكوت. اعتبر كثير من الزوار الترك والعرب أن هذا المكان هو "منزلي"، وجميعهم قدموا للحديث فقط، لكنهم غالبًا ما كانوا يغادرون بعد شراء جزء من الإنجيل، أو بضائع أخرى. وقد بيعت كل الكتب والأنجيل التي أحضرتها معي، خلال الفترة القصيرة التي أمضيتها

(٤) قرية من قرى الهفوف، إلى شمال قرية الفضول. انظر: الجاسر، ٤/ ١٦٩٧.

(٥) المكان المعد لإقامة الجند، كالقلعة أو الحصن. وقد بناه العثمانيون في الأحساء لما استولوا عليها في أول النصف الثاني من القرن العاشر الهجري. انظر: الجاسر، ٤/ ١٥٢١.

هنا، حتى نسختي من الإنجيل؛ وقد لُت نفسي على عدم إيمانها؛ لأنني لم أحضر معي المزيد.

وقد سُمح لي أن أذهب إلى السوق (البازار) يوميًا متى شئت، حتى لقد سُمح لي بزيارة الجامع الكبير ودخوله. وفي إحدى الأمسيات تناولت طعام العشاء مع شيخ الرفاع [١٩] العربي، وهو موظف رسمي تابع للحكومة العثمانية، وقد أمدني بمعلومات غنيّة جداً عن طرق القوافل المتجهة إلى داخل البلاد.

وانتهت سريعاً الأيام الأربعة التي قضيتها في المدينة، وقد خطّطت أن أعود بالاتجاه إلى الشمال مروراً بالقطيف، إن كان هناك قافلة، بدلاً من الانتظار لعدة أيام لعودة القافلة التي تحمل التمر إلى العُقيير. ومع توافر الفرصة، إلا أنه لم يُسمح لي بالذهاب إلا بعد التوقيع على ورقة تخلي مسؤولية الحكومة إذا ما مت، أو فقدت أحد أطرافي، أو فقدت أمتعتي؛ لخطورة الطريق. وقد احتفظت بنسخة من هذه الوثيقة. لكن الحمى كانت العدو الوحيد الذي قابلته في الصحراء.

انطلقت قافلتنا الصغيرة في ظهيرة يوم الثلاثاء، لكنها لم تمر من جانب بلدة المُبرَز^(٦) الكبيرة، كما كنت آمل، بل اتجهت شرقاً ووصلت إلى الكلايية^(٧) عند الساعة الثانية ظهراً. واجتزنا بينابيع وعيون وحقول الأرز ومستنقعات، كل شيء هنا مختلف جدا عن الجزيرة العربية التي عرفناها في كتب

(٦) ثاني أكبر مدن الأحساء مساحة، وهي إلى الشمال من الهفوف، بينهما ثلاثة أكياال تقريباً. انظر: الجاسر، ٤ / ١٥٥٩.

(٧) قرية من قُرى المُبرَز، إلى شرقها. انظر: الجاسر، ٤ / ١٥١٣.

الجغرافيا المدرسية. لكننا صرنا وسط الصحراء مرة أخرى بعد مرور أربع ساعات، حيث كانت حرارة الشمس تفوق احتمالي. فأصِبتُ بحمى صاحبتني إلى أن عدت إلى البحرين. واستمرت الطريق الصحراوية إلى القطيف. وفي ليلة الأربعاء سرنا طوال الليل تحت النجوم، (بسبب تحذير كاذب من وجود لصوص)، حتى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي. ثم استرحنا في مكان يسمى أمَّ الحَمَّام^(٨)، وفي اسمه مفارقة مُرَّة، فلم يكن فيه حَمَّامات^(٩)، ولا أشجار، ولا عشب، كان فيه فقط حفرة ضحلة فيها ماء عكر، ونخيلات قليلة. وقد أمضينا هنا يوماً حاراً. وفي صباح يوم الجمعة، وصلنا إلى حدود القطيف - بساتين نخيل، وآبار، وقنوات مائية تعود إلى عصور قديمة، وأبراج غريبة، وثقوب لدخول الهواء إليها بينها مسافات متماثلة. ووصلنا إلى البحر بعد أن مررنا بمزارع، والتفطنا في طريقنا على قلعة مربعة الشكل. ثم وجدت في مبنى الجمرِك مرةً أخرى راحةً وانتعاشاً. لم أمكث في القطيف طويلاً، لكنني آمل أن أزورها مرةً أخرى مباشرةً من البحرين^(١٠).

(٨) كان اسمها "أمَّ الحَمَّام" فغيره أهلها إلى أمَّ الحمام، وقد وردت بهذا الاسم (Um El Hammam) عند زويمر. وهي من قرى القطيف، إلى الجنوب منها. انظر: الجاسر، ١ / ١٦٩.

(٩) واضح أن زويمر اعتقد أن الاسم نسبة إلى "الحَمَّام" مكان الاستحمام، ولذلك قال إن في اسم المكان مفارقة مُرَّة؛ وإنما هو في الحقيقة نسبة إلى الحَمَّام الطائر المعروف.

(١٠) لقد عاد زويمر مرةً أخرى إلى القطيف مباشرةً سنة ١٩١١م، وقد ترجمتُ التقرير الذي كتبه عن تلك الزيارة، ونشر في هذه المجلة (٤٤، ٣٣، ١٤٢٨هـ).

وفي يوم الأحد، الخامس عشر من أكتوبر، أقلني مركب من القطيف إلى المنامة، ومن ثمَّ إلى مقرَّ الإرسالية. ولا يُتَوَقَّع من جولة سريعة مثل هذه، استمرَّت اثني عشر يومًا، أي نتائج تذكر، على الرغم من بيع عدد من الكتب والأنجيل، ولكنها إحدى الخطى الأولى الضرورية في حقل جديد.